

الباب الأول المنهج المعرفي في الإسلام

الفصل الأول : عقل المنهج اللساني واللغوي العربي

الفصل الثاني: عقل المنهج المعرفي القرآني

عقل المنهج اللساني واللغوي العربي

أنزل الله تبارك وتعالى القرآن الكريم على الرسول محمد بن عبد الله عليه الصلاة والسلام، وهو من العرب موطناً ولساناً وقوماً، وقد قرر القرآن الكريم هذه الحقائق التاريخية في أكثر من موضع، فقال الله تعالى: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾⁽¹⁾، وقال تعالى: ﴿ وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ ﴾⁽²⁾، وقال تعالى: ﴿ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِنُنذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَنُنذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ ﴾⁽³⁾.

ولسان القوم هو الكلام المستعمل بينهم، إذ لا يكون الإنذار ولا البيان ولا التذكير إلا بالكلام المفهوم والمعقول للناس، في مستواه الفردي والاجتماعي، فقال الله تعالى: ﴿ وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحَدِّثُ لَهُمْ ذِكْرًا ﴾⁽⁴⁾، ومعنى عربياً أي واضحاً لا غموض فيه⁽⁵⁾، ولذلك بين الله تعالى أنه أنزله قرآناً عربياً، وصرّف فيه من الوعيد لعلهم يتقون، فغاية القرآن أن يعلم الناس ما فيه تقواهم أي ما فيه نجاتهم في الدنيا والآخرة، وحتى يكون لهم فيه ذكر كلما قرؤوه، وتذكير كلما نسوه.

وقد نص المولى عز وجل على الغاية من نزول القرآن الكريم عربياً في أكثر من آية، فقال تعالى: ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾⁽⁶⁾، وقال تعالى: ﴿ إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا

(1) سورة: إبراهيم، رقم الآية: (4).

(2) سورة: الزخرف، رقم الآية: (44).

(3) سورة: الشورى، رقم الآية: (7).

(4) سورة: طه، رقم الآية: (113).

(5) معجم مقاييس اللغة، ابن فارس، ص 766.

(6) سورة: يوسف، رقم الآية: (2).

عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ»⁽¹⁾، أي حتى يعرف ويدرك ويفهم ويعقل وهو في الصيغ اللفظية المسموعة أو المكتوبة، ويتحول إلى عقل مكون لعقل الإنسان الكلي، لأن العقل عند الإنسان بنية معان حسية وعلمية وبيانية⁽²⁾، والعقل الاجتماعي هو عقل ذلك المجتمع، أي ما تتكون منه بنية معانيهم وقيمهم وعلومهم وثقافتهم وعاداتهم التراثية والمعاصرة، وعقل الإنسان أي بنية معانيه منها ما يتكون بالقراءة الإنسانية للكون والطبيعة، ومنها ما يتكون من التعليم والقراءة الخاصة والعامّة.

قال الله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا وَلِيُنَبِّئَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ مَا جَاءَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ﴾⁽³⁾، في هذه الآية من سورة الرعد يصف الله تبارك وتعالى إنزال القرآن بأنه حكم عربي، أي هو قانون واضح، حتى يحكم الناس به أنفسهم، من غير تشويه ولا اختلاف ولا تعارض ولا تناقض، فهو بمعنى الحكم الواضح الذي لا يختلف فيه ولا يتنازع عليه، وأداة فهمه اللسان العربي، ومعنى كلمة العروبة من الوضوح التام والإبانة والإفصاح، وكذلك القرآن فقد وصفه الله تعالى عربياً أي واضحاً بلياً.

وأما أنه عربي، أي باللسان العربي فدلّله في الآيات التي جاءت كلمة العروبة مقرونة باللسان، كما في قوله تعالى: ﴿وَمِنْ قَبْلِهِ كَتَبَ مُوسَىٰ إِمَامًا وَرَحْمَةً وَهَذَا كِتَابٌ مُصَدِّقٌ لِسَانًا عَرَبِيًّا لِيُنذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَيُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ﴾⁽⁴⁾، وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَعَلْنَا أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَبِيَّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ﴾⁽⁵⁾.

وحيث لم تفرق كلمة العروبة باللسان فالمعنى المقصود أنه واضح جلي، حتى يسهل فهمه وتدبره لكل الناس الذي يتكلمون ويفهمون اللسان العربي، والعلّة في ذلك حتى يعقلوه، أي حتى يفهموا معاني كلماته فتتحول من معان كلامية إلى معان عقلية، إذ العقل

(1) سورة: الزخرف، رقم الآية: (3).

(2) حول تعريف العقل: انظر كتاب فهم الإنسان «النظرة المعرفية العربية» تأليف عمران سميح نزال، نشر دار قتيبة للنشر في سورية ودار القراء للنشر في الأردن، الطبعة الثانية 2002م.

(3) سورة: الرعد، رقم الآية: (37).

(4) سورة: الأحقاف، رقم الآية: (12).

(5) سورة: النحل، رقم الآية: (103).

بنية معان، فلو لم يكن القرآن واضحاً لما فهم الناس معاني كلماته وآياته وسوره، وإذا لم يعقلوه أي يدركوا معانيه ويمسكوها فلن تتكون في عقولهم، فالله أنزل القرآن الكريم واضحاً حتى يفهمه الناس بيسر ودون مشقة، وقد جاء هذا المعنى في القرآن الكريم مؤكداً عليه في أكثر من آية كما في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ﴾⁽¹⁾، فالوضوح والتيسير من الله حتى يعقل الإنسان عن ربه كلامه، وقد ضرب الله تبارك وتعالى في القرآن الكريم الأمثال زيادة في التوضيح والبيان والفهم، ونفى عنه العوج حتى لا يكون الاعوجاج منه ولا سبباً له، وجعله قياً، فقال تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا ﴿١﴾ قِيَمًا...﴾⁽²⁾.

وحيث إن معاني أي لسان هي جزء من معان اجتماعية لفئة من الناس تتحول مع الزمن إلى لغة، أي تتحول من المعاني اللسانية المتداولة في زمن ما إلى معان اجتماعية وقومية ولغوية تنتسب إلى قوم⁽³⁾، فقد تحول الكثير من المعاني اللسانية إلى اللغة العربية، وعلى أساسها وبسببها صنفت المعاجم اللغوية العربية، وقد دونت المعاني اللسانية واللغوية بعد قرون من تاريخ نزول القرآن الكريم، وبالأخص ما كتب في عصر التدوين في القرنين الثالث والرابع للهجرة، أي إن المعاني اللغوية في الغالب مرحلة متطورة عن المعاني اللسانية، المعاني اللسانية كانت متزامنة مع تاريخ نزول القرآن الكريم والعصر النبوي وعصر الراشدين، ولذا تتميز المعاني اللغوية باعتمادها على معاجم اللغة وكتب فقه اللغة وقواعد النحو وأساليب البيان التي دونها علماء اللغة الأوائل.

إن هذه الأفكار توجب على كل مسلم أن يتفكر بالمعاني اللسانية التي نزل بها القرآن الكريم، وذلك بتدبر القرآن الكريم مباشرة وليس من كتب التفسير فقط، أي أن يجمع بين القراءتين، القراءة التراثية والقراءة العلمية الحرة، وأن يتعلم اللغة العربية المدونة في كتب اللغة المعتمدة، حتى تكون عبادته لله تبارك وتعالى عبادة علمية أولاً، وعبادة عملية ثانياً، وأما من يتصدرون لتفسير القرآن الكريم وبيان مسائله للناس، فينبغي عليهم أن يتفكروا في مناهج القرآن الكريم المعرفية وكيف يعرض قضاياها، وان يتفكروا بأصول

(1) سورة: القمر، رقم الآية: (17).

(2) سورة: الكهف، رقم الآية: (1).

(3) انظر: خصائص اللغة العربية، ابن جني، دار الشؤون الثقافية العامة، الطبعة الرابعة، بغداد، 1/ 34.

اللسان العربي وأساليبه التي نزل بها القرآن الكريم عربياً، وأن يتعلموا أقسام الكلام في اللسان العربي، وأساليب نظمه في اللسان العربي وفي القرآن الكريم، فهذا مدخل معرفي وعلمي لفهم القرآن الكريم، ومنهج معرفي وعقلي لفهم كل قضية إنسانية أو اجتماعية أو سياسية أو ثقافية، دعا إليها القرآن الكريم إثباتاً أو نفيًا، فاللغة أساس العلم والفقه.

عقل المنهج المعرفي القرآني

للقرآن الكريم مناهج مميزة في تناول القضايا وعرضها وتحليلها وتقويمها وعلاجها، ومن أهم هذه المناهج الخطاب القرآني، أي مناهج التخاطب مع الناس وطرق إقناعهم بالإسلام، بعض هذه المناهج استعملها القرآن الكريم في خطابه علمياً وعملياً دون أن يدعو إليها كمنهج خطابي، وبعضها أمر بها وحث على تداولها واستعمالها بين الناس كمنهج خطابي، وبالأخص في أساليب الدعوة إلى الإسلام، هذه المناهج معرفية بالدرجة الأولى، لأن الإنسان المخاطب هو مخلوق قارئ⁽¹⁾، أي هو إنسان مستقبل للمعرفة ومرسل لها، والمناهج المعرفية تهدف إلى تعليم الإنسان والناس المناهج الصحيحة في التخاطب والمحاورة، وغايتها إحداث القناعة بصحة الهداية الإسلامية بحرية وإرادة حقيقية.

إن تحقيق الغاية في الهداية يتطلب تحقيق القناعة في الإنسان والناس بحرية ودون إكراه، ولذا فإن أكثر ما تركز عليه هذه المناهج هو كيفية دعوة الناس إلى المفاهيم الصحيحة أولاً، وفي كيفية تحذيرهم من المفاهيم الخاطئة ثانياً، فاستعملت المناهج المعرفية التي يفهمها الناس ويستوعبونها وتؤدي إلى النتائج الصحيحة، فإذا تحقق ذلك فقد عُقل المنهج المعرفي القرآني فعلاً، أي إنَّ عقل المنهج المعرفي القرآني يعني أن الإنسان قد أدرك غايات الخطاب القرآني، وتبين له الرشد من الغي، وهدى إلى صراط مستقيم، علمياً وعملياً، فردياً وجماعياً.

وبالرغم من وضوح هذه المناهج المعرفية في القرآن الكريم وكثرة التركيز عليها، إلا أن التصنيف فيها لم يأخذ حقه في التاريخ الفكري والعلمي عند المسلمين، إذ تم التركيز على التأصيل الفقهي أكثر من غيره في التراث الأصولي الإسلامي، فصنف الكثير من كتب أصول

(1) انظر: كتاب فهم الإنسان «النظرة المعرفية العربية» عمران سميح نزال، ص 209.

الفقه، وبالرغم من كثرة التأليف في كتب التوحيد وأصول الدين والعقائد الإسلامية إلا أن التأصيل المعرفي لها كان قليلاً، والتأصيل المعرفي لعلم الكلام أو الفلسفة الإسلامية بالرغم من قلته أيضاً، إلا أنه لم يستطع أن يثبت نفسه علماً إسلامياً أصيلاً⁽¹⁾.

وقضية مثل «حرية الرأي» في الإسلام لا بد قبل تناولها من الإشارة ولو باختصار إلى التأصيل المنهجي المعرفي العام في القرآن الكريم، ومن ثم محاولة تطبيقه على كل مسألة بعينها، وبالأخص في كيفية دعوة الناس إلى الحرية، وكيفية حث المسلمين على حرية الرأي أو موقفهم منها، فالمنهج المعرفي القرآني منهج عام، ولكنه خاص في تناول كل قضية بعينها، المنهج العام هو المنهج الذي عرض القرآن الكريم به قضايا الفكرية والعقدية والاجتماعية والسياسية وغيرها، وعندما يستعمل منهجاً خاصاً في قضية بعينها، فذلك بسبب طبيعة تلك القضية في أبعادها المعرفية الإنسانية أو العقلية الاجتماعية أو العلمية السياسية.

إن معرفة المنهج المعرفي أصل أساسي في فهم الإسلام، لا يقل أهمية عن أصول الفقه للفقيه، ولا أصول علم الحديث للمحدث، ولا أصول النحو للغوي وهكذا، فمن خلال معرفة هذه المناهج المعرفية والعلمية نتبين كيف تناول القرآن الكريم قضايا الإنسانية الفكرية إيجاباً أو سلباً، أي إثباتاً أو نفيًا، أي عن طريق الدعوة إليها مباشرة أو بنقضها، أو بنقض نواقضها، لأن نقض النقائق إثبات للحقائق، ونفي النفي إثبات، وبهذه المناهج يمكن فهم هذه القضايا بالصورة الحقيقية والمعاني الصحيحة، وقبل عرض هذه المناهج نذكر أن عرضها مفصلة لا يعني أنها مناهج معزولة عن بعضها، أو أن كل منهج يعمل بمفرده فقط، بل تعمل متفرقة ومجتمعاً كلها أو بعضاً منها، وهذا ما سوف نتبينه من دراسة السور والآيات التي وردت فيها، فالتفصيل للبيان وليس للعزل أو التفريق أو التباين، ومن هذه المناهج المعرفية القرآنية:

منهج البلاغ:

البلاغ لغة هو الوصول، قال أهل اللغة: (بلغ: الباء واللام والغين أصل واحد وهو الوصول إلى الشيء: تقول بلغ المكان، إذا وصلت إليه)⁽²⁾، وقيل: البلوغ

(1) انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام أحمد بن تيمية، جمع وترتيب المرحوم عبدالرحمن بن محمد بن قاسم، كتاب المنطق، 82 / 9.

(2) معجم مقاييس اللغة، ابن فارس، ص 153.

والبلاغ: الانتهاء إلى أقصى المقصد والمنتهى، مكاناً أو زماناً، أو أمراً من الأمور المقدره⁽¹⁾.

والبلاغ في القرآن الكريم إما إيصال رسالة إلى المرسل إليه بغض النظر عن الجواب، إذ تنتهي المسؤولية عند إيصال الرسالة، وهي بمعنى تقديم النصيحة، وإما أن التبليغ إقامة الحجة على المرسل إليهم، بمعنى أداء الأمانة وتحمل المسؤولية، والشواهد القرآنية على ذلك كثيرة منها:

1 - بلاغ إيصال الرسالة:

قال الله تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَتَّقُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنَ اللَّهِ عِندَهُ إِذٍ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥١﴾ قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرِيكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٥٢﴾ قَالَ يَتَّقُوا اللَّهَ لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٥٣﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنْصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٥٤﴾، وقال تعالى: ﴿وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعْدُهُمْ أَوْ نتَوْفِيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ ﴿٥٥﴾، وقال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَبْلُغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ حَاسِبًا ﴿٥٦﴾، وقال تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الرُّسُولُ يَلْفُحُ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴿٥٧﴾.

هذا المنهج المعرفي البلاغي في إيصال الرسالة لا يقوم إلا على الحرية، وبالأخص حرية الرأي، لأن النبي عندما يبعث في قومه ويؤمر بإبلاغ رسالة فإن ذلك لا يتم إلا إذا وجدت حرية الرأي، فإن لم توجد فإن على النبي أن يجاهد من أجل إيجادها، أي من أجل إيجاد الجو الفكري الحر الذي يحتاجه لإبلاغ رسالته بحرية، فحرية الرأي في هذه المرحلة سلاحه المنهجي الوحيد، ولذا فإن النبي مطالب أن يدعو قومه إلى احترام حرية الرأي والاحتكام إليها، لأن الحرية قيمة عظيمة ومهمة في دعوته، فقضية الأنبياء والرسل في

(1) مفردات ألفاظ القرآن، الراغب الأصفهاني، ص 144.

(2) سورة: الأعراف.

(3) سورة: الرعد، رقم الآية: (40).

(4) سورة: الأحزاب، رقم الآية: (39).

(5) سورة: المائدة، رقم الآية: (67).

المنهجية المعرفية هي قضية الحرية، حتى يتمكنوا من إبلاغ رسالتهم، وأتباعهم من بعدهم مطالبون أن يبذلوا كل ما يستطيعون من أجل نشر الحرية بين الناس حتى يتمكنوا من دعوة الناس إلى الخير.

2 - بلاغ إقامة الحجة:

المعنى الآخر للبلاغ هو إقامة الحجة، وهو أن المبلغ يوصل الرسالة، والمبلغ، أي المرسل إليه يتحمل مسؤولية ما بلغ به، أي إن البلاغ الثاني يتضمن البلاغ الأول، لأن في البلاغ المبين إقامة الحجة التامة، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ فِي هَذَا بَلَاغًا لِقَوْمٍ عَابِدِينَ﴾⁽¹⁾، وقال تعالى: ﴿قَالُوا رَبَّنَا عَلِّمْنَا لِنَا إِيَّاتِكَ لَمُرْسَلُونَ﴾⁽²⁾ وَمَا عَلَيْنَا إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ⁽³⁾، وقال تعالى في سورة الشورى: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ...﴾⁽⁴⁾، وقال تعالى: ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرُونَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبُثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّنْ نَّهَارٍ بَلَاغٌ فَهَلْ يُبْلَغُ إِلَّا الْقَوْمَ الْفَاسِقُونَ﴾⁽⁵⁾، وقال تعالى: ﴿هَذَا بَلَاغٌ لِلنَّاسِ وَلِيُنذِرُوا بِهِ. وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَهُ وَجِدْ وَيَذْكُرُوا الْأَنْبِيَاءَ﴾⁽⁶⁾.

وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ اللَّهِ أَسْلَمُوا وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَيْنَهُمْ وَمَن يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾⁽⁷⁾ فَإِنَّ حَاجِبَكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعْنِي وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ ءَأَسْلَمْتُمْ فَإِن أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾⁽⁸⁾.

وقال تعالى في سورة النور: ﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾⁽⁹⁾، وقال تعالى:

(1) سورة: الأنبياء، رقم الآية: (106).

(2) سورة: يس، رقم الآية: (16-17).

(3) سورة: الشورى، رقم الآية: (48).

(4) سورة: الأحقاف، رقم الآية: (35).

(5) سورة: إبراهيم، رقم الآية: (52).

(6) سورة: آل عمران، رقم الآية: (19-20).

(7) سورة: النور، رقم الآية: (54).

﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا الْبَلْغُ الْمُبِينُ﴾⁽¹⁾، وقال تعالى:
 ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأَحْذَرُوا فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا الْبَلْغُ الْمُبِينُ﴾⁽²⁾ ..
 ﴿مَا عَلَىٰ الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلْغُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ﴾⁽³⁾.

نقرأ في هذه الآيات الكريمة معاني كثيرة عن مفهوم البلاغ في القرآن الكريم، منها أن الله تبارك وتعالى جعل البلاغ من وظائف كافة الرسل عليهم الصلاة والسلام، وأن معناه هو بمفهوم عرض الأفكار على الآخرين دون محاسبتهم عليها من قبل الرسل، سواء استجاب الناس لهذا البلاغ أم لم يستجيبوا، فالثواب والعقاب من الله تعالى وليس من الرسل، ودور الرسل في البلاغ لا يفقد الإنسان اختياره ولا قراره ولا حريته، فالبلاغ والتبليغ منهج معرفي قرآني في إيصال المعلومات من الله تبارك وتعالى إلى الناس، دون أن يكون في معناه اللغوي ولا في ممارسته العملية أي إكراه.

منهج البيان:

البيان منهج معرفي قرآني استعمله كل الأنبياء والرسل، فما من نبي ولا رسول إلا جاء قومه وأمته بالبيان والبيانات، والبيان فعل توضيح وإظهار وشرح، والبيانات جمع بينة، والبينة بمعنى الحجة العقلية مثل معنى الآية، أي الدليل الذي يقيم الحجة القاطعة أولاً، فهو بيان للحقيقة بحيث لا يبقى للمقابل حجة مقابلة، ولذا تستعمل البينة للتحدي ثانياً، وذلك بمقابلة الآخر أن يأتي بمثلها، بهدف إقامة الحجة على الناس، وقد استبدل الفكر الإسلامي التراثي هذا اللفظ والمعنى بكلمة أخرى هي كلمة المعجزة، علماً بأن كلمة المعجزة ليست كلجنة قرآنية ولا نبوية.

والمعنى الذي نفضله لكلمة البينة هو الشرح والتوضيح ورفع اللبس والغموض، لأنه المعنى اللغوي والقرآني معاً، فالبيان إما حجة عقلية وإما شرح وتفصيل ورفع لبس أو غموض، وفي مصطلح القرآن الكريم البينة هي بيان الهدى والحق والرشد وما يأخذ عند فعله حكم الحلال، وما بعده فهو ضلال وباطل وبغي وحرام، كما جاء في قول الله تعالى: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِرْ بِاللَّهِ فَقَدِ

(1) سورة: التغابن، رقم الآية: (12).

(2) سورة: المائدة.

أَسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٧﴾، فقرار الكفر أو الإيثار يتخذ الإنسان بنفسه ودون إكراه من أحد، ودور الإسلام هو في بيان الرشد من الغي - رحمة من الله تعالى - حتى يكون قرار الإنسان معرفياً وعقلياً وعلمياً.

1 - تبين الرشد:

وقال الله تعالى: ﴿وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالزُّبُرِ وَبِالْكِتَابِ الْمُنِيرِ ﴿٢٢﴾.

وقال تعالى: ﴿وَإِذَا نُتِيَ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا ﴿٢٣﴾.

وقال تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنَ عِنْدِ اللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُمْ بِهِ مِنْ أَضَلِّ مَمَّنْ هُوَ فِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ﴿٢٤﴾ سَتُرِيدُهُمْ ءَايَاتُنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكُفَّ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٢٥﴾﴾.

وقال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِي إِلَيْهِمْ فَسَتَلَوْا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْمَلُونَ ﴿٢٦﴾ بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَنْفَكُرُونَ ﴿٢٧﴾... ﴿٢٨﴾ وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٩﴾... ﴿٣٠﴾ وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَؤُلَاءِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ بَيِّنَاتٍ لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿٣١﴾﴾.

وقال تعالى في سورة البقرة المدنية: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّوكُمْ مِّنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَكًا مِّنْ عِنْدِ أَنفُسِهِمْ مِّنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْتَصُوا وَأَصْفَحُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧٩﴾﴾.

وقال تعالى: ﴿هَذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿١٧٨﴾﴾.

(1) سورة: البقرة، رقم الآية (256).

(2) سورة: فاطر، رقم الآية (25).

(3) سورة: مريم، رقم الآية (73).

(4) سورة: فصلت.

(5) سورة: النحل.

(6) سورة: آل عمران، رقم الآية (138).

وقال تعالى: ﴿وَمَنْ يُسَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصَلِّهِ ۖ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴿١١٥﴾﴾ (١).

وقال تعالى: ﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُتَفَكِّحِينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ ۖ رَسُولٌ مِنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفًا مُطَهَّرَةً ﴿٢﴾ فِيهَا كُتِبَ قِيمَةٌ ﴿٣﴾ وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَةُ ﴿٤﴾﴾ (٢).

2 - «تبيين» الغي:

الأصل هو بيان الهدى والحق والرشد، وبيان الأصل يكشف عن ضده ونقيضه، والكشف بيان بالمعنى العقلي، لأن من تبين له الرشد فقد استبان بنفسه سبيل المجرمين وهو سبيل الغي، قال الله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نَفْصَلُ الْآيَاتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلَ الْمُجْرِمِينَ ﴿٣﴾﴾، وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ أَرْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُمُ الْهُدَىٰ ۗ الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمَلَىٰ لَهُمْ ﴿٢٥﴾﴾ (٤).

إن في المنهج المعرفي البياني أكبر دليل على حرية الرأي في الإسلام، فالمنهج البياني يكشف عن منهج القرآن العام، وأنه يقوم على بيان الحق، وليس بعد الحق إلا الضلال، والنتيجة لا إكراه في الدين من بعد ما تبين الرشد من الغي، أي إن البيان دليل نظري على حرية الدين والاعتقاد والرأي، وكلا المعنيين للبينة دليل على أن المنهج المعرفي أساس التخاطب مع الناس، وليس الإكراه ولا الجبر، وأن الناس دائماً أحرار في مقابلة البينة بالإيمان أو بالكفر، فالبينة ملزمة عقلياً ومعنوياً ونظرياً، وغير ملزمة عملياً بدليل وجود من يختار الغي بدل الرشد، والكفر بدل الإيمان.

منهج التعليم:

يقوم هذا المنهج المعرفي على تعليم الإنسان والناس والمسلمين والمؤمنين القيم الصحيحة عن طريق إنزالها وحياء من الله تعالى، وبياناً نبوياً من النبي عليه الصلاة والسلام، وقد تحقق هذا المنهج بتعليم النبي عليه الصلاة والسلام أولاً، كما في قوله تعالى:

(1) سورة: النساء، رقم الآية (115).

(2) سورة: البينة.

(3) سورة: الأنعام، رقم الآية (55).

(4) سورة: محمد، رقم الآية (25).

﴿وَالنَّجْوَى إِذَا هُوَ ١﴾ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى ٢﴾ وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ٤﴾ عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ ٥﴾ ﴿١﴾

وقد تحقق هذا المنهج ثانياً في تعليم الرسول عليه الصلاة والسلام في هدايته للناس تلاوة وبياناً، وتعليمه للمؤمنين كتاباً وحكمة، أي على نوعين:

1 - تعليم الكتاب: هو بيان الحق والصواب وما ينبغي تصديقه وفعله، ويأخذ فعله حكم الحلال وأجره فلاح الدنيا وفوز الآخرة.

2 - تعليم الحكمة: هو كشف الباطل والخطأ وكشف ما ينبغي تكذيبه وتركه، وما يأخذ فعله حكم الحرام، وجزاؤه خسران الدنيا وعذاب الآخرة.

والتعليم جزء من البيان، أو فرع عنه، والفارق بينهما هو أن البيان عام للناس كافة، المؤمن وغير المؤمن، بينما التعليم خاص بالمؤمنين، وأدلة تعليم الكتاب هي أدلة تعليم الحكمة في الآيات القرآنية، كما في قول الله تبارك وتعالى: ﴿رَبَّنَا وَأَبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۗ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ١٦٣﴾ ﴿٢﴾

وقال تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ١٦٤﴾ ﴿٣﴾
وقال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيَّةِنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ٢﴾ ﴿٤﴾

وقد جاء تعريف الحكمة في القرآن الكريم في سورة الإسراء في قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ مِمَّا أَوْحَىٰ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ ۗ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا ۗ آخَرَ فَتُنْقَلَىٰ فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا ١٣١﴾

وقد جاءت هذه الآية بعد آيات كثيرة بينت الأمور التي نهى القرآن الكريم عنها، مثل الشرك وعدم العبادة إلا لله تعالى، وعدم الإساءة للوالدين، وعدم التبذير، وعدم البخل، وعدم قتل الأولاد خشية الإملاق، وعدم الزنا، وعدم قتل النفس إلا بالحق، وعدم قرب مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن، والوفاء بالكيل والوزن بالقسطاس المستقيم، وعدم

(1) سورة: النجم.

(2) سورة: البقرة، رقم الآية (129).

(3) سورة: آل عمران، رقم الآية (164).

(4) سورة: الجمعة، رقم الآية (2).

الافتقار إلا بعلم، وعدم المشي في الأرض مرحاً، وبعد ذكر كل هذه المنهيات المسبوقه لغة بأداة النهي «لا» جاءت الآية السابقة من سورة الإسراء تبين أن الحكمة هي مفارقة هذه المنهيات، فتعليم ما هي المنهيات والممنوعات هي من الحكمة، وعدم ارتكاب المحرمات هي الحكمة، ولكن قرار الفعل يصدر من الإنسان، فالإنسان هو من يعمل الفعل الذي جاء به العلم، أو ينتهي عن الفعل الذي جاءت به الحكمة، فالعلم والحكمة منهج معرفي، والفعل الإنساني يوافق أو يخالف بإرادته، أي إنَّ التعليم هو من باب الهداية والرشد، والحكمة من باب معالجة أصل الداء، بالقضاء على علل المرض، والتعليم أصل الدواء بالقضاء على علل الجهل، وكلا المنهجين: العلم والحكمة، لا يفقد الإنسان حقه وحرته بالقبول أو الرفض، بالموافقة أو الاعتراض.

منهج التزكية:

التزكية منهج معرفي قرآني، ومعنى التزكية النماء والطهارة، وهو في الأمور المعرفية والمعنوية حث على نماء المعرفة التي تهذب الأخلاق والتحلي بها لحسنها، سواء كانت أخلاقاً حسنة في حياة الإنسان الفردية، أو أخلاقاً حسنة في حياة الناس الجماعية، والزكاة في الأمور المادية إيتاء الغني ما عليه من حق للفقير بإحسان، والثاني لا يخرج عن الأول، أي إنَّ الزكاة المعنوية أصل للزكاة المادية، ولذلك حثت السور المكية الأولى على الزكاة المعنوية وتهذيب الأخلاق، تأسيساً للزكاة المادية المالية التي تبنى المجتمع وتقيم الدولة.

1 - التزكية الفردية:

قال الله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى﴾⁽¹⁾.

وقال تعالى: ﴿الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى﴾^(١٨) وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَىٰ ﴿١٩﴾ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ

الْأَعْلَىٰ ﴿٢٠﴾ وَسَوْفَ يُرْضَىٰ ﴿٢١﴾⁽²⁾.

وقال الله تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا﴾^(٧) فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴿٨﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ ذَكَرَهَا ﴿٩﴾

وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا ﴿١٠﴾⁽³⁾.

(1) سورة: الأعلى، رقم الآية (14).

(2) سورة: الليل.

(3) سورة: الشمس.

وقال تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ جَمِيلًا لَا يُحْمَلُ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ إِنَّمَا تُنذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِ ۗ وَإِلَىٰ اللَّهِ الْمَصِيرُ ﴿١٨﴾﴾^(١).

2 - التزكية الجماعية:

قال الله تعالى: ﴿فَاقْرَءُوا مَا نَسَرَّ مِنْهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾^(٢)، وقال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمَمِينَ رَسُولًا مِنْهُمْ بَيَّنَّ لَهُمْ آيَاتِهِ وَزَكَّاهُمْ وَعَلَّمَهُم الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾^(٣).

نقرأ في هذه الآيات الكريمة منهجاً معرفياً قرآنياً، يبحث على التزكية بالمعنيين المعنوي الأخلاقي والمادي المالي، في بعدها الفردي الشخصي والجماعي الاجتماعي، فهذه إشارة إلى أن التزكية الجماعية فعل ذاتي ومطلب تعليمي يتحلل به الإنسان بمفرده، وتلتزمه الأمة المسلمة والمجتمع المؤمن طواعية، وتعليم التزكية والحث عليها لا يفقد الإنسان حرته، بل يوجهها إلى ما يجملها ولا يشينها، فمنهج التزكية منهج معرفي عملي وليس علمياً فقط، أي لا يتحقق إلا في الواقع المحسوس في سلوك الفرد وسلوك الجماعة، وهذه ميزة من مميزات المناهج المعرفية القرآنية، وهي عدم توقفها عند الحدود المعرفية المعنوية فقط، بل لا بد أن يصدق العلم بالعمل.

منهج السؤال:

السؤال منهج معرفي كثير الورد في القرآن الكريم، استعمله القرآن في السور الملكية سؤالاً فكرياً يحرك العقول ويبين المجهول، واستعمله في السور المدنية منهجاً معرفياً في التشريع والتعليم، وقد ورد السؤال والاستفسار في القرآن الكريم من وإلى الأنبياء وقومهم، ومن وإلى المؤمنين والكفار أفراداً وطوائف، والغاية من السؤال هي إثبات الحق والمعرفة النافعة للناس، سواء بالإجابة المباشرة أو عن طريق تفسير ظاهرة كونية أو بيان فائدة وجودها في الطبيعة.

(1) سورة: فاطر، رقم الآية (18).

(2) سورة: المزمل، رقم الآية (20).

(3) سورة: الجمعة، رقم الآية (2).

٦ - السؤال الفكري:

توجه القرآن الكريم في بيان ضوابط السؤال الفكري، وهو أنه لا يجوز التكهن بمعرفة الغيب من غير دليل، قال الله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبْدُ الرَّحْمَنِ إِنثًا أَشْهَدُوا خَلَقَهُمْ سَتَكُنُّبُ شَهِدَتُهُمْ وَيَسْأَلُونَ﴾ (١١) ﴿١﴾، وقال الله تعالى: ﴿وَلَيْنَ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (٢٥) ﴿٢﴾، ومن الأسئلة التي أثارها القرآن الكريم بقصد إثباتها، السؤال عن يوم القيامة وعن الساعة، فقال الله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ (٦) ﴿٣﴾، وقال الله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لَا يُجِيبُهَا لَوْفَهَا إِلَّا هُوَ يُقَلِّتُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمُ إِلَّا بَغْتَةً﴾ (٧٧) ﴿٤﴾، وسأل عن الطبيعة فقال الله تعالى: ﴿وَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا﴾ (١٠٥) ﴿٥﴾.

وأما السؤال عما لا يدرك فقد أجاب عنه القرآن بما ينفع ويعلم، فقال الله تعالى: ﴿وَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ (٨٥) ﴿٦﴾، وكذلك أجاب القرآن على الأسئلة التاريخية لأن في الإجابة عليها دليلاً على صدق نبوة محمد عليه الصلاة والسلام، قال الله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِلْسَّالِفِينَ﴾ (٧) ﴿٧﴾، وقال الله تعالى: ﴿وَسْأَلُونَكَ عَنِ ذِي الْقُرْبَيْنِ قُلْ سَأَتْلُوا عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْرًا﴾ (٨٣) ﴿٨﴾.

والملاحظ على الآيات السابقة أنها مكية النزول بحكم وجودها في سور مكية، ومن استقراء الأسئلة المكية نجد أن موضوعاتها تقرير السؤال كمنهج معرفي، وإثبات توحيد الله تعالى والعلم به وحقه على خلقه، وإثبات نبوة الرسل وأنهم بشر ورجال يوحى

(1) سورة: الزخرف، رقم الآية (19).

(2) سورة: لقمان، رقم الآية (25).

(3) سورة: القيامة، رقم الآية (6).

(4) سورة: الأعراف، رقم الآية (187).

(5) سورة: طه، رقم الآية (105).

(6) سورة: الإسراء، رقم الآية (85).

(7) سورة: يوسف، رقم الآية (7).

(8) سورة: الكهف، رقم الآية (83).

إليهم، والإجابة على الأسئلة الكونية والطبيعية والتاريخية، وعدم الإجابة على ما لا يقع تحت الحس ولا خير في العلم به من الغيب، وأنَّ جلَّ الأسئلة المكية من الكفار والمشركين وأهل الكتاب.

2 - السؤال التشريعي:

ومن استقراء السؤال المدني - في الغالب - نجد أولاً أنه من المسلمين والمؤمنين، وموضوعه معرفة الأحكام الشرعية، فهو سؤال خلقي وأدبي وتشريعي يستوضح معاني العبادة العلمية والعملية بما يفيد وينفع حياة المؤمنين الاجتماعية والاقتصادية وعمَّا أحلَّ من المأكل والمشرب وغيرها، ومن آدابه أن لا يسأل عن أشياء إن تبدَّ لهم تسوَّهم، قال الله تعالى:

﴿ أَمْ تَرِيدُونَ أَنْ نَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَتَّبِعِ الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ۝١٠٨﴾... ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ۝١٨٦﴾... ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهْلَةِ ۗ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ ۝١٨٧﴾... ﴿ يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ ۗ قُلْ مَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ خَيْرٍ فَلِللَّوَالِدِينَ وَالْأَقْرَبِينَ ۝٢١٥﴾... ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ وَفِيهِ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ ۝٢١٧﴾... ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ ۗ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنْفَعٌ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا ۗ وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ ۗ قُلِ الْغَفْوُ ۗ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ۝٢١٩﴾ ﴿ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ۗ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الَّتِي تَمَسُّ قُلُوبَ صَاحِبِيهَا ۗ قُلْ هِيَ خَيْرٌ ۝٢٢٠﴾ ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَجِيسِ ۗ قُلْ هُوَ أَذَىٰ ۝٢٢٣﴾^(١).

وقال الله تعالى: ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ ۗ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ ۗ فَأَتَقُوا اللَّهَ وَاصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ ۗ إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ۝١﴾^(٢).

وقال الله تعالى: ﴿ يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَكُمْ ۗ قُلْ أُحِلَّ لَكُمْ الطَّيِّبَاتُ ۗ وَمَا عَلَّمْتُمْ مِنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ ۗ وَأَنْقُوا ۗ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ۝٤﴾^(٣)، وقال الله تعالى: ﴿ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِن بُدِّ

(1) سورة: البقرة.

(2) سورة: الأنفال، رقم الآية (1).

(3) سورة: المائدة، رقم الآية (4).

لَكُمْ سؤُوكُمْ وَإِنْ سَأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْآنُ تُبْدِ لَكُمْ عَفَا اللَّهُ عَنْهَا وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿١١١﴾ قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا بِهَا كَافِرِينَ ﴿١١٢﴾ ﴿١﴾

القرآن إذ يستعمل السؤال منهجاً معرفياً في بيان الحقائق وكشفها، فإنه يميز بينهما إن كانت فكرية أو تشريعية، حتى يكون فقهاً ومنهجاً يتبع في معرفة المواقف وتحديد المسؤوليات، ولذا فإن المنهج المعرفي يطرح السؤال والجواب في مكانه وزمنه الصحيح، وغايته إقامة البينة على الناس وتحذيرهم من المعارف الضارة والأسئلة السيئة، ومعلوم أن السؤال هو نصف العلم، وميز البحث الفلسفي عن غيره⁽²⁾.

منهج الاعتبار:

الاعتبار منهج معرفي قرآني معتبر، قال علامة اللغة ابن فارس هو من العبر ومعناه: النفوذ والمضي في الشيء، يقال عبرت النهر عبوراً.. والاعتبار والعبرة مقيسان من عبري النهر،.. قال الله تعالى: ﴿فَاعْتَبِرُوا يَأْتُولِي الْآبْصَرِ﴾⁽³⁾، كأنه قال: انظروا إلى من فعل ما فعل فعوقب بما عوقب⁽⁴⁾، فهو أشبه بالقياس العقلي.

1 - الاعتبار الفكري:

قال الله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن أَهْلِ الْكِنَابِ مِن دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنْتُمْ أَن يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُمْ مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِّنَ اللَّهِ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَأْتُولِي الْآبْصَرِ﴾⁽⁵⁾، وقال تعالى: ﴿يَقْلِبُ اللَّهُ الَّيْلَ وَالنَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَرِ﴾⁽⁶⁾، وقال تعالى: ﴿وَإِنَّ لِكُلِّ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً لِّتُنذِرَكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهِ مِن بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لِّبَنَّا خَالِصًا سَابِغًا لِلشَّرِيبِ﴾⁽⁷⁾.

(1) سورة: المائدة.

(2) انظر: الحق العربي في الاختلاف الفلسفي، الدكتور: طه عبدالرحمن، الطبعة الأولى، المركز الثقافي

العربي، بيروت، 2002، ص 18.

(3) سورة: الحشر، رقم الآية (2).

(4) معجم مقاييس اللغة، ابن فارس، ص 730.

(5) سورة: الحشر، الآية رقم (2).

(6) سورة: النور، رقم الآية (44).

(7) سورة: الأنعام، رقم الآية (66).

2 - الاعتبار القصصي التاريخي:

قال الله تعالى: ﴿لَقَدْ كُنَّا فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةً لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرُونَ وَلَكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١١٠﴾﴾^(١)، وقال تعالى: ﴿وَكَلَّا نَقْضُ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُنَبِّئُ بِهِ فُقَادًا وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرٌ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٠﴾﴾^(٢).

الاعتبار الفكري: هو الوصول إلى الرأي الصحيح من خلال المشاهدة والتجربة، مثل النظر والتفكير بما هو مشاهد من أحداث كونية، وهو أشبه بالمنهج التجريبي الذي يستخلص النتائج من المشاهدات والتجارب العملية، مثل مشاهدة تقلب الليل والنهار وبناء مفهوم عقلي عن علاقة حركة الشمس بالنهار وحركة القمر بالليل، ومشاهدة ما يخرج من بطون الأنعام من سقاء للإنسان، لا يتم تفسيره إلا بالتفسير العقلي.

أما الاعتبار التاريخي: هو معرفة ما حل بالأمم السابقة من نتائج حسنة أو سيئة، إما بمشاهدة الآثار القديمة أو بقراءة التاريخ، وكلا الاعتبارين الفكري والتاريخي يعود بقراره إلى الإنسان نفسه، ونظرة وتفكيره، فالإنسان هو من يبنى النظريات العلمية عن الطبيعة أو عن التاريخ، وفي الحالتين لا يلغي الاعتبار إرادة الإنسان ولا حريته، بل يحترمها ويقدرها ويجعلها قوية ووثيقة، ولذلك كان الاعتبار من المناهج التي دعا إليها القرآن الكريم صراحة، ووظفه القرآن الكريم كثيراً عن طريق القصص القرآني المكثف.

منهج البرهان:

البرهان من مناهج القرآن المعرفية الأساسية، وبالأخص في مجال الفكر والثقافة والمحااجة العقلية، فاحتج بهذا المنهج المعرفي كثيراً على الناس وعلى أهل الكتب السابقة في السور المكية التي كانت تناقش الملل والنحل والمعتقدات الباطلة، حتى نستطيع القول بأن كل سورة فيها: ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾^(١)، هي سورة مكية، أي إن المنهج المعرفي البرهاني من مميزات السور المكية التي لم يذكرها العلماء من قبل.

(1) سورة: يوسف، رقم الآية (111).

(2) سورة: هود، رقم الآية (120).

إن المنهج المعرفي البرهاني منهج معرفي وعقلي وعلمي، استعمله القرآن الكريم في تحدي معارف الناس وعقولهم وعلومهم، وقيل: هو أوكد الأدلة، وهو الذي يقتضي الصدق أبداً لا محالة⁽¹⁾، فهو المطالبة بالدليل العقلي المقنع أو الدليل النقلي الملزم، قال الله تعالى: ﴿أَمَّنْ يَبْدُوا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ. وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَلَيْسَ مَعَ اللَّهِ قُلُوبٌ بَاهِتُونَ﴾ (2) وقال تعالى: ﴿أَسْأَلُكَ بِدَعْوَى الْجَنَّةِ فِي جَهَنَّمَ بِيضَاءٍ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ وَأَضْمَمَ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ فَذَلِكُمْ بُرْهَانُنَا مِنْ رَبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ (3) ﴿... وَنَزَعْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ فَعَلِمُوا أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ (4) وقال تعالى: ﴿أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ هَذَا ذِكْرٌ مَنْ مَعِيَ وَذِكْرٌ مَنْ قَبْلِي بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُمْ مُعْرِضُونَ﴾ (5) وقال تعالى: ﴿وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾ (6) وقال تعالى: ﴿وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصْرَىٰ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (7).

1 - البرهان العقلي:

قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ تُعْمِرْهُ نَتَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ أَفَلَا يَعْقِلُونَ﴾ (8) وقال تعالى في سورة الفرقان المكية: ﴿أَرَأَيْتَ مِنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوْنَهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا﴾ (9) ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ (10) وقال تعالى: ﴿قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ (11).

(1) مفردات ألفاظ القرآن، الراغب الأصفهاني، ص 121.

(2) سورة: النمل، رقم الآية (64).

(3) سورة: القصص.

(4) سورة: الأنبياء، رقم الآية (24).

(5) سورة: المؤمنون، رقم الآية (117).

(6) سورة: البقرة، رقم الآية (111).

(7) سورة: يس، رقم الآية (68).

(8) سورة: الفرقان.

(9) سورة: الشعراء، رقم الآية (28).

وقال تعالى: ﴿وَمِن ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ نَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٧﴾﴾^(١).

وقال تعالى: ﴿وَمَا أَوْتِشِرْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَّعُ الْحَيَوةِ الدُّنْيَا وَزَيَّنْتُهَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٠﴾﴾^(٢).

البرهان العقلي يتناول القضايا المحسوسة والمدركة للحواس والعقل الفطري والمكتسب، وهو مما يتوافق عليه الناس من معارف ومدارك ومعان دون إنكار، مثل كبر الإنسان وهرمه ونكوسه، فهذه آية مشاهدة من الناس كافة ولا ينكرها أحد، ولذلك عدت آية عقلية، وكذلك الآيات العقلية الأخرى.

2 - البرهان النقلي:

قال الله تعالى: ﴿يَتَأَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُبِينًا ﴿٣﴾﴾، والبرهان هنا الدليل الذي تقوم به الحجة التامة، وقد كان القرآن الكريم ولا زال حجة بذاته لذاته، فهو برهان منزل من عند الله تعالى، لأنه حجة بذاته، ومصداقاً لما بين يديه.

وقال تعالى: ﴿أَفَجَعَلُ الْمُتْسِلِينَ كَالْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ لَكُمْ كِتَابٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ ﴿٣٧﴾ إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخْتَرُونَ ﴿٣٨﴾﴾^(٤).

وقال تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ أَتُنْفُونَ بِكِتَابٍ مِنْ قَبْلِ هَذَا أَوْ أَنْزَلْنَا مِنْ عَلَيْنَا كِتَابًا لَمْ يَكُنْ صَادِقِينَ ﴿٤﴾﴾^(٥).

وقال تعالى: ﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَى وَيَقُولُونَ سِعْفُ رَبِّنَا وَإِنْ بَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِثْلَهُ، يَأْخُذُوهُ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِمْ مِيثَاقُ الْكِتَابِ أَنْ لَا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ وَدَرَسُوا مَا فِيهِ وَالْدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١١٩﴾﴾^(٦)، في هذه الآية الكريمة من سورة الأعراف جمع للبرهانين معاً: برهان الدين أو الدليل النقلي وهو ميثاق

(1) سورة: الأنعام، رقم الآية (67).

(2) سورة: القصص، رقم الآية (60).

(3) سورة: النساء، رقم الآية (174).

(4) سورة: القلم.

(5) سورة: الأحقاف، رقم الآية (4).

(6) سورة: الأعراف، رقم الآية (169).

الكتاب، والبرهان العقلي معاً، وكلا البرهانين العقلي والنقلي حجة للإنسان وعليه، وبالرغم من قوته في الحجة إلا أنه قوة معنوية يلتزم بها الإنسان طواعية، أي لا يعمل بها الإنسان كرهاً، وإنما عن قناعة عقلية وعن إرادة حرة معاً.

منهج التذكير:

التذكير منهج معرفي قرآني كثير الوجود في السور القرآنية، بل لا تكاد تخلو منه سورة قرآنية، لما له من دور معرفي وعلمي بتذكير الإنسان ما لا يعرفه أو ما ينساه أو ما يغيب عنه، وهو إما تذكير خاص بالمقربين من المذكر، وإما تذكير عام للناس جميعاً بل أعم.

1 - التذكير الخاص:

قال الله تعالى: ﴿فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ الذِّكْرَىٰ ۙ سَيَذَكِّرُ مِنْ نَحْنَىٰ ۗ وَنَجِّنَبُهَا الْأَسْفَىٰ ۗ﴾ (١١) (١)، وقال الله تعالى: ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَىٰ تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ ۗ﴾ (٥٥) (٢)، وقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُ فِي ذَٰلِكَ لَرَحْمَةٌ وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ۗ﴾ (٥١) (٣)، وقال تعالى: ﴿كُنْتُ أَنْزِلُ إِلَيْكَ فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ لِنُنذِرَ بِهِ، وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ۗ﴾ (٢) (٤).

2 - التذكير العام:

قال الله تعالى في سورة القلم المكية: ﴿وَإِنْ يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُرْفَلِقُنكَ بِأَبْصَرِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ ۗ وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ۗ﴾ (٥٥) (٥). قال تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذِهِ تَذْكِرَةٌ ۖ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذْ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا ۗ﴾ (١٦) (٦). قال تعالى: ﴿تَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ ۚ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ ۖ فَذَكَرْ بِالْقُرْآنِ مِنَ مِحَافٍ وَعَيْدٍ ۗ﴾ (٧). قال تعالى: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ ۚ لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيْطِرٍ ۗ﴾ (٢٢) (٨).

(1) سورة: الأعلى.

(2) سورة: الذاريات، رقم الآية (55).

(3) سورة: العنكبوت، رقم الآية (51).

(4) سورة: الأعراف، رقم الآية (2).

(5) سورة: القلم.

(6) سورة: المزمل، رقم الآية (19).

(7) سورة: ق، رقم الآية (45).

(8) سورة: الغاشية.

ومعلوم بالضرورة أن منهج التذكير لا كراهة فيه ولا قهر ولا إجبار، فهو منهج معرفي محض، بل فيه كل الاحترام للإنسان المذكر أو الناس المذكرين والحرص عليهم والنصح لهم، والناس أمامه أحرار في أتباع التذكير أو رفضه أيضاً.

منهج الدعوة:

كلمة الدعوة من أكثر الكلمات الإسلامية المستعملة في مضمار نشر الإسلام، بل إن كل من يعمل للإسلام قد يأخذ اسم الداعية ويتصف به، أو يوصف به رغماً عنه، وهذا غير دقيق بصورة دائمة، لأنه غير موافق لمعنى الدعوة في القرآن الكريم، بل ينبغي تقييد كلمة الدعوة بالمعايير الشرعية، فهي منهج معرفي قرآني، وهي وظيفة نبوية معظمة، فلا يتصدر لها إلا بالشروط الشرعية، حتى لا يساء إليها ولا للإسلام، وبالأخص من الأفراد المتحمسين أو المقلدين لفعل الدعوة دون تربية أو تأهيل.

إن دراسة منهج الدعوة كمنهج معرفي قرآني يظهر أن القرآن الكريم لم يستعمل كلمة الدعوة إلا في حق الأنبياء والرسل، أي إنَّها وظيفة نبوية بإطلاق، بدليل اقترانها بالأنبياء أولاً، وبدليل أنها جاءت بالصيغ اللغوية الفردية وهي تتحدث عن مهمة الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام ثانياً، بينما استعملت مرة واحدة فقط في حق غير الأنبياء والرسل بالصيغة اللغوية الجماعية، وهي قوله تعالى: ﴿وَأَتَىٰكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (١٠٤)، ومن معاني ذلك أن وظيفة الدعوة انتقلت من الأنبياء والرسل بالصورة الفردية إلى الأمة الإسلامية بالصورة الجماعية، لأن هذه الأمة قد خلفت الأنبياء والرسل بعد ختم النبوة، ويستدل على ذلك بأن الآية المذكورة مدنية، بحكم المناسبة التنزيلية والتاريخية لسورة آل عمران المدنية، وقد تحقق وجود الأمة القادرة على وظيفة الدعوة علمياً وعملياً، وهذا يعني أن هذا المنهج المعرفي القرآني تقوم به الأمة المسلمة جماعة، وفق نظام دعوي شرعي.

1 - الدعوة بالحكمة:

تبين لنا من قبل أن الحكمة منهج تعليمي، كما جاء في وظيفة الرسول عليه الصلاة والسلام: ﴿وَيَعْلَمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾، وقلنا عن الحكمة هي الامتناع عن القبائح والمفاسد والشرور وكل الأخلاق الذميمة، ولذا أمر الله تعالى أن تكون الحكمة أول خطوة

(7) سورة: آل عمران، رقم الآية (104).

بالدعوة إلى سبيل الله، بمعنى أن يحرص الداعي على الأخلاق الحميدة قبل الشروع في الدعوة إلى الإسلام، وأن يمتنع عن الإساءة إلى من يدعوهم، قال الله تعالى: ﴿أَدْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَحَدِّ لَهُم بِآلَتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ (١٦٥) ﴿١﴾.

الدعوة بالحكمة دعوة إلى تجنب الأفعال المحرمة والأقوال القبيحة من قبل الداعية أولاً، وعدم الاعتداء على من يدعوهم بالقول أو الفعل القبيح ثانياً، وأن يبدأ دعوته بمطالبة المدعوين أن يمتنعوا عن فعل الأشياء القبيحة ثالثاً، أي قبل أن يدعوهم إلى فعل الأشياء الحسنة، ولكن أهمها النهي عن أي فعل فيه إساءة للآخرين، وبالأخص من يتوجه إليهم بالدعوة، فالتزام الداعية بالأخلاق الحميدة مع الآخرين واحترامهم يؤهله للقيام بالخطوة التالية وهي الوعظ، وهو منهج معرفي في إعطاء المعلومة بلطف ولين ومودة.

2 - الدعوة بالموعظة:

قال الله تعالى: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعْتِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ (١٦٨) ﴿٢﴾، وقال تعالى: ﴿فَلِذَلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ إِنَّمَا آمَنْتُ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمْ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَلْنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ لَا حِجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ (١٦٥) ﴿٣﴾.

وقال تعالى: ﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ فَلَا يُنْزِعُ عَنْكَ فِي الْأَمْرِ وَاذْعُ إِلَى رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلىٰ هُدًى مُسْتَقِيمٍ﴾ (١٦٧) ﴿٤﴾ وَإِنْ جَدَلُوكَ فَقُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٦٨﴾ اللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٦٩﴾ ﴿٤﴾.

منهج الفرقان:

منهج الفرقان يعني حرية المعرفة مهما كانت، وحق المعارض أن يقول رأيه دون رهب أو خوف، بل وهو آمن على نفسه من عواقب رأيه، فهو أعلى درجات حرية الرأي في الإسلام، وبغض النظر عن هوية قائله.

(1) سورة: النحل، رقم الآية (125).

(2) سورة: يوسف، رقم الآية (108).

(3) سورة: الشورى، رقم الآية (15).

(4) سورة: الحج.

مفهوم الفرقان لغة هو التمييز بين أمرين: (فرق: الفاء والراء والقاف أصليل صحيح يدل على تمييز وتزييل بين شيئين) (1)، وهما بالنسبة للقرآن الكريم التمييز بين الحق والباطل، والصواب والخطأ، وسبيل المؤمنين وسبيل المجرمين، وهو بالنسبة للحق إثباته، وهو بالنسبة للباطل إزهاقه ودحضه، قال الله تعالى في سورة آل عمران المدنية: ﴿ نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ ﴾ (٢) مِنْ قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ الْقُرْآنَ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَأْتِيَتِ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ ﴾ (٤) (2)، إشارة إلى أن سورة آل عمران سترد على أقوال أهل الكتاب في قصة مريم والمسيح عيسى عليهما السلام، وأكثر ما ظهر منهج الفرقان في السورة التي تحمل اسم هذا المنهج وهي سورة الفرقان المكية، التي كثيراً ما تناولت أقوال الذين كفروا وعرض آرائهم، ومن ثم تجيب عليها بما يقنع ويكفي ويشفي:

1 - فرقان دحض الباطل:

قال الله تعالى في سورة الفرقان: ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْقُرْآنَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا ﴾ (١) الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَرَهُ مَقْدِيرًا ﴾ (٢) وَأَخَذُوا مِنْ دُونِهِ ءَالِهَةً لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُورًا ﴾ (٣) وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا آفَاكُ أَفْتَرْتَهُ وَاعَانَاهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا ﴾ (٤) وَقَالُوا اسْتَطِيرُ الْأَوَّلِينَ أَكْتَتَبَهَا فِيهِ تَمَلُّي عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴾ (٥) قُلْ أَنزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا ﴾ (٦) وَقَالُوا مَا لَ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُوبُ مَعَهُ نَذِيرًا ﴾ (٧) أَوْ يُنْفَخُ إِلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا ﴾ (٨) أَنْظِرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَلَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴾ (٩) .. ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَكُ أَوْ نَرَى رَبَّنَا لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيرًا ﴾ (١٠) .. ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا

(1) معجم مقاييس اللغة، أبو الحسين أحمد بن فارس، تحقيق: شهاب الدين أبو عمرو، دار الفكر،

بيروت، الطبعة الثانية، 1418 هـ، 1998 م، ص 843.

(2) سورة: آل عمران.

لَوْلَا نَزَلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا ﴿٣٣﴾ وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴿٣٤﴾

وهكذا عرض القرآن الكريم في فرقانه أقوال الذين كفروا وأقوال الظالمين والذين ضربوا الأمثال وغيرهم، أي عرض أقوال المعارضين بكل حرية، ثم أجاب عليها، فكان جواب الفرقان عليهم كاشفاً عن بطلان حججهم، وأثبت أنهم كانوا بأقوالهم ضالين عن الحق، وفاقدين للسبيل القويم.

2 - فرقان الإثبات للحق:

قال الله تعالى في سورة الفرقان: ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾ ﴿٣٣﴾... ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَمًا﴾ ﴿١٣﴾ وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا ﴿١٤﴾ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّكَ عَذَابُهَا كَانَ غَرَامًا ﴿١٥﴾ إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿١٦﴾ وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا ﴿١٧﴾ وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿١٨﴾ يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا ﴿١٩﴾ إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿٢٠﴾ وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا ﴿٢١﴾ وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا ﴿٢٢﴾ وَالَّذِينَ إِذَا دُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴿٢٣﴾ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴿٢٤﴾ أُولَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا نَجْوَىٰ وَسَلَامًا ﴿٢٥﴾ خَالِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٢٦﴾ قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا ﴿٢٧﴾

في هذه الآيات الكريمة كان الفرقان هو بيان الحقيقة وسبيل عباد الرحمن وهو سبيل المؤمنين، دون إهمال لأقوال المعارضين ولو كانت باطلة، وليس أكثر من ذلك حرية في التاريخ الديني أو التاريخ الفكري، فمن يحتفظ بأقوال المخالفين له، ويعرضها على الملأ دون خوف ولا حرج، بل ويجعل منها قرآناً يتلى ويتعبد بتلاوته، وهو في مهاجمة القرآن ومهاجمة الرسول والمسلمين، إن في المنهج الفرقاني القرآني منهج معرفي عظيم، فيه النص

التمكين في المدينة المنورة، أي إن الآية ليست مكية حتى تعتبر قبل أحكام القتال والقصاص والتمكين، كل ذلك ضمانة لحرية الكلمة أن تهدر وحرية الرأي أن يقهر.

منهج المجادلة:

المجادلة منهج معرفي مقيد، فقد دعا إليه القرآن الكريم مع من يستعمله من الناس، فالأصل في المنهج المعرفي هو الدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة، فإن جادلوك، أي تحول كلامهم معك إلى مزيدة كلامية ومشادة عصبية، فجادلهم بالتي هي أحسن، لأن المجادلة هي التصلب في المواقف، وامتداد الخصومة ومراجعة الكلام⁽¹⁾، ولا يكون التصلب في المواقف إلا رغبة بالغلبة ولو لم يقدم الحجة الكافية ولا الدليل الملزم، أي إن الجدل هو طلب الغلبة بغض النظر عن صحة الدليل المقدم، فمن جادل بغير علم نجادله بعلم، ومن تشدد في موقفه وهو على باطل لا تشدد في موقفنا معه إلا بالإحسان إليه، وهذا هو معنى المجادلة بالإحسان، فلا يقبل القرآن المجادلة بالمعنى اللغوي من غير أن يوجه المنهج المعرفي المستعمل من الآخر فيهديه ويرشده إلى الحق والصواب، وهو جعل المجادلة طلباً للعلم وليس للغلبة فقط، ولذلك اشترط على النبي عليه الصلاة والسلام وعلى المؤمنين الجدل بالتي هي أحسن.

1 - المجادلة للإحسان:

قال الله تعالى: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَدِلْ لَهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾⁽²⁾، وقال تعالى: ﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأَنْزَلَ إِلَيْكُمْ وَاللَّهُنَّ وَاللَّهُمَّ وَجِدْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾⁽³⁾، وقال تعالى: ﴿وَلَا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَفُونَ أَنفُسَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا﴾⁽⁴⁾ يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّنُونَ مَا لَا يَرْضَى مِنَ الْقَوْلِ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا⁽⁵⁾ هَتَأْتُمْ هَتُؤَاءَ جَدَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَمَنْ يُجَادِلِ اللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَمْ مَنْ يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكَيْلًا⁽⁶⁾﴾⁽⁴⁾.

(1) معجم مقاييس اللغة، ابن فارس، ص 205.

(2) سورة: النحل، رقم الآية (125).

(3) سورة: المجادلة، رقم الآية (46).

(4) سورة: النساء.

2 - المجادلة للغلبة:

قال الله تعالى: ﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ فَلَا يُنْزِعُكَ فِي الْأَمْرِ وَأَدْعُ إِلَى رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُّسْتَقِيمٍ ﴿٧٧﴾ وَإِنْ جَدَلُوكَ فَقُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٧٨﴾ اللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كُنْتُمْ تَخْتَلِفُونَ ﴿٧٩﴾﴾ (١).

وقال تعالى: ﴿قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ رِجْسٌ وَعَصَبٌ أَنْتُمْ جَدِلُونَنِي فِي أَسْمَاءِ سَبَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وءَابَاؤُكُمْ مَا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ فَاَنْظُرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ ﴿٧١﴾ فَأَجْبِئْتُهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَقَطَعْنَا دَائِرَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٧٢﴾﴾ (٢).

وقال تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَيْكَ أَوْلِيَاءَهُمْ لِيُجَدِّلُواكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴿١٣١﴾﴾ (٣)، وقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعْمَهُ ظَهْرَهُ وَيَاطِنُهُ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ ﴿٢٠﴾﴾ (٤).

من الممكن القول بأن المجادلة للغلبة ليست منهجاً معرفياً، فأية سورة الأنعام تشير إلى أن مصدره شيطاني، وآية سورة لقمان تنص على أنه جدال بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير، وما كان حاله كذلك لا يوصف بالمنهج المعرفي، ولكن مجال عمله في الشؤون الثقافية، ولذا يوجه إلى المنهج المعرفي القويم، فيشترط عليه أن يكون جدالاً بالتي هي أحسن، ويدخل المناهج المعرفية من باب احترام الآخر ومناهجه المعرفية ولو كانت غير قويمة.

منهج المصالح:

منهج المصالح منهج عملي تطبيقي، وهو لا يدخل في المناهج المعرفية بصورة مباشرة، ولكنه مما له علاقة مباشرة بنتائج المناهج المعرفية، ولذلك من الممكن اعتباره منهجاً معرفياً من جهة تأثير النتائج على مجريات التفكير واتخاذ القرار، وقد احتج القرآن الكريم بهذا المنهج في إثبات بعض المواقف المعنوية أو في دحضها، إما بالبدعوة إلى العمل

(1) سورة: الحج.

(2) سورة: الأعراف.

(3) سورة: الأنعام، رقم الآية (121).

(4) سورة: لقمان، رقم الآية (20).

الصالح والنافع بالمعنى الدنيوي، أي بما يعود على الإنسان والناس بمنافع مباشرة في حياتهم اليومية، أو بما يدفع عنها بالضرر والخسارة في الدنيا أيضاً، والمثال الأوضح في هذا المجال منهج تحريم الخمر، قال تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنْفَعَةٌ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْمَعْفُوكَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٣٦﴾^(١)، والإثم أشمل من الضرر، فهو في اللغة بمعنى البطء والتأخر^(٢)، أي إن الآثم بطيء عن النفع وبعيد عنه.

1 - المصلحة في جلب المنفعة:

قال الله تعالى في سورة يونس: ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَنُهَا إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا ءَامَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ ءَآذَ الْخَرِي فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿١٠١﴾... ﴿وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذَا مِن الظَّالِمِينَ ﴿١٠٦﴾﴾^(٣)، وقال الله تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِ ظَهِيرًا ﴿٥٥﴾﴾^(٤)، وقال تعالى: ﴿وَأْتَلُ عَلَيْهِم بَأْ إِبرَاهِيمَ ﴿٦١﴾ إِذ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَنْظِلُ لَهَا عَنكِيفِينَ ﴿٧١﴾ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُم إِذ تَدْعُونَ ﴿٧٢﴾ أَوْ يَنْفَعُونَكُم أَوْ يَضُرُّونَ ﴿٧٣﴾ قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا ءَابَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٧٤﴾﴾^(٥)، وقال الله تعالى: ﴿قُلْ أَدْعُوا مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰنَا اللَّهُ كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَىٰ آلِهَتِي أَنِيتْنَا قُلْ رَبِّ هُدَىٰ اللَّهُ هُوَ الْهُدَىٰ وَأَمَرْنَا لِنُسَلِّمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦١﴾﴾^(٦)، وقال تعالى: ﴿قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكُم شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُم ﴿٦٦﴾ أَفِ لَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾﴾^(٧).

(1) سورة: البقرة، رقم الآية (219).

(2) معجم مقاييس اللغة، ابن فارس، ص 59.

(3) سورة: يونس.

(4) سورة: الفرقان، رقم الآية (55).

(5) سورة: الشعراء.

(6) سورة: الأنعام، رقم الآية (71).

(7) سورة: الأنبياء، الآية رقم (67).

الذي يجلب المنفعة ويدفع الضرر، وبدليل الآيات القرآنية الكثيرة التي قرنت بين الإيمان والعمل الصالح، وفي هذه الآيات لا يقال أن العمل الصالح غير دنيوي، بل هو يشمل المنفعة الدنيوية والمنفعة الأخروية معاً.

منهج المآل:

الحديث عن المآل كمنهج معرفي قرآني مهم جداً، فقد يوجد من الناس من يكون جداله موهماً له أنه على حق وصواب، وقد لا يقوى المجادل له بالتي هي أحسن - قدر استطاعته - أن يقنعه، لا بالحكمة ولا بالموعظة الحسنة ولا بالجدال بالتي هي أحسن، فهؤلاء لا يتوقف الكلام المعرفي معهم عند هذا الحد، بل لا بد من إضافة مناهج أخرى، ومنها منهج الاعتبار وبالأخص الاعتبار التاريخي، الذي يرسم مسار الأمم الناجحة والأمم الفاشلة، فتبين له أن البحث عن الفلاح الدنيوي قرين الحق، والحق قرين المآل الآخروي، ومن هنا يدخل بيان انتفاع الناس من مناهجهم لمعرفة النتيجة التي يؤولون إليها دنيوياً وأخروياً، فمن انتفع بالبشرى القرآنية انتفع بالفلاح الدنيوي، ومن تجنب مآل النذر تجنب العقاب الآخروي، إن الحديث عن البشرى والفلاح منهج معرفي يخاطب العقول والقلوب معاً، والحديث عن النذر والعقاب منهج معرفي يخاطب العقول والقلوب أيضاً، والحديث عن هذه المناهج المعرفية مرتبط بنوع المعتقدات والأفكار الصادقة أو الباطلة، وما تؤدي إليه من مآل دنيوي وأخروي، قال الله تعالى في سورة الإسراء المكية:

﴿ إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴾ (١)، وقال تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّلْعُوتَ أَنْ يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فَبَشِّرْ عِبَادَ ﴿٧﴾ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَٰئِكَ هُمْ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾ (٢).

١ - مآل الفلاح الدنيوي:

قال الله تعالى: ﴿ أَوْعَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ يُنذِرَكُمْ ۚ وَأَذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِن بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَضْطَةً ۖ فَادْكُرُوا ءَالَآءَ اللَّهِ

(١) سورة: الإسراء، رقم الآية (٩).

(٢) سورة: الزمر.

لَعَلَّكُمْ تَفْلِحُونَ ﴿١٦﴾ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَاَلَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٧﴾ ﴿١﴾، قال تعالى في سورة لقمان المكية: ﴿الآء﴾ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ ﴿٢﴾ هُدًى وَرَحْمَةً لِلْمُحْسِنِينَ ﴿٣﴾ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٥﴾ ﴿٢﴾.

وقال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ﴿٢﴾ وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ ﴿٤﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ﴿٥﴾ إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٦﴾﴾ ﴿٣﴾.

2 - مآل الفوز الأخروي:

قال تعالى: ﴿إِلَّا آيَاتُ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٢﴾ الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿١٣﴾ لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ لَا يَبْدِيلُ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَلِكُمْ هُوَ الْقَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١٤﴾﴾ ﴿٤﴾.

في الحديث عن المآل عالج القرآن الكريم كل ما يمكن أن يقع من انحرافات، وبالأخص في معالجة الانحراف الأكبر في حياة الإنسان، وهو الانحراف في العبادة، وهو عندما يخضع الإنسان لقوى لا تستحق العبادة ولا التقديس، فالقرآن يتحدث عن مآل الحياة بعد الموت، فمن لم ينتفع بالمناهج السابقة سيجد في الغاية التي يؤول إليها، إما إلى حياة ونجاة أبدية أو إلى سوء العاقبة وعذاب مقيم.

هذه بعض أنواع المناهج المعرفية التي أطلقها الإسلام منذ لحظة وجوده، فقد انطلق الإسلام بالمدخل المعرفي الإنساني الأول «اقرأ»، الذي استهل القرآن الكريم النزول به، والذي انطلقت الدعوة الإسلامية به على يد خاتم الأنبياء وأفضل المرسلين محمد بن

(1) سورة: الأعراف.

(2) سورة: لقمان.

(3) سورة: المؤمنون.

(4) سورة: يونس.

عبدالله عليه الصلاة والسلام، فالأساس المعرفي والعقلي والعلمي هو الذي أسس للبناء الإسلامي القوي والقويم، للمسلم المؤمن الفرد، وللأمة العربية والإسلامية أمة متعلمة عالمة، وهو الذي مكن الرسالة الإسلامية من الانتشار السريع والقوي في البلاد العربية وخارجها، وهو الذي مكن لها البقاء في كل البلاد التي دخلها والقوميات التي تعامل معها، ما لم تتعرض إلى الاضطهاد ومحاكم التفتيش.

إن عقل المنهج المعرفي القرآني مدخل صحيح لفهم قضايا الإنسان وكيف وبأي منهج عاجلها القرآن، فقد يكون عاجلها بالمنهج الحكمي أو المنهج الفرقاني أو المنهج الاعتباري أو ببعضها دون غيرها.

ويظن من لم يدرك المناهج المعرفية القرآنية أن القرآن الكريم لم يعالج هذه القضية أو تلك، وهو في الحقيقة حصر منهج الإثبات كما يتصوره هو لا كما يعرضه القرآن نفسه، ومسألة الحرية هي من هذا الباب وبالأخص حرية الرأي، فقد عرضها القرآن بمناهجه المتميزة، كما سيأتي إن شاء الله، المنهج المعرفي القرآني قائم على حرية المعرفة وحرية الإنسان معاً، والأساس المعرفي هو رهان الإسلام في التغيير والتجديد في كل عصر ومع كل جيل، وهو ما ينبغي تفعيله في الحاضر من أجل التجديد في فهم الإسلام والبناء القوي المنشود.

هذه المناهج المعرفية لا يمكن تحقيقها والعمل بها في الواقع إلا في جو حقيقي من حرية الرأي، وهذا الجو الفكري الحر هو أساس عمل دعوة الأنبياء، فما لم يوجد فلن يتمكن الأنبياء من تبليغ رسالتهم للناس بحرية، وقد بذل الأنبياء جهداً كبيراً، وجهاداً عظيماً، وصبراً طويلاً، دفاعاً عن حقهم في حرية الرأي، ومخاطبة قومهم دون موانع ولا عوائق.

وإذا عمل أي مجتمع بهذه المناهج المعرفية وفي مقدمتها المجتمع الإسلامي فإنه سيوفر نظرياً وعملياً الحرية لأهله، وسيوفر حرية الرأي لأبنائه جميعاً، وستكون هذه المناهج المعرفية من أقوى أدواته في عملية البناء والثبات على الحق والعلم والاستقامة، وستكون في نفس الوقت من أقوى أسلحته في مقاومة الانحرافات الداخلية الفردية والجماعية، وفي مقاومة الغزو الفكري الخارجي بشتى أشكاله وألوانه وأنصاره.